مخلصون بالنعمة

(أفسس ٢:٨-١٠)

تأليف: جو شوبيرت

احد الأشياء التي لا أرغب بها هي تسديد الفاتورة. عادة ما أتجنب دفع الفاتورة حتى تتراكم ومن ثم أدري بان الوقت قد حان لأدفعها.

الموعد الأخير بالنسبة لي لدفع فاتورة التأمين يأتي دائما في الخامس عشر من كل شهر. أحياناً أخفق في دفع المبلغ بحلول الخامس عشر. وأحياناً أتناسى دفع حساب الفاتورة حتى احصل على الإنذار منهم. ومع ذلك يستمرون بتوفير التأمين لي. انهم يمنحون ما يسمى بـ« ثلاثين يوماً تسمى فترة السماح.» لمدة ثلاثين يوماً بعد الموعد الأخير، يستمروا بتوفير التأمين، رغم تأخيري بالدفع.

هل استحق فترة السماح؟ كلا، لم أدفع حساب الفاتورة بعد. ولكنهم مددوها لي. انهم قد أعطوني بالضبط ما لا استحقه.

« الرحمة » هي من إحدى المصطلحات الرئيسية في الكتاب المقدس. الكلمة اليونانية الأصلية تحتوي فكرة الإنحناء والنزول إلى مستوى أدنى. وأخيراً جاءت لتشمل فكرة « التصرف بلطف » أو اظهار الرحمة لشخص بطريقة غير متوقعة. فكر بالملك الذي يمضي عن سبيله ليفعل شيء لطيف للخادم، من تواضع قلبه.

كلما يذكر الكتاب المقدس نعمة الله نحو الإنسان، يضع التأكيد على طبيعة العمل الذي فيه عدم الاستحقاق. أظهر الله لنا الرحمة من أجل محبته واهتمامه، ولسنا جديرين بما يمنحنا. النعمة هي شيء يختاره الله ليقدمه مجاناً، وليس شيء ملزم أن يمنحنا اياه.

هل تعلم بانه ليس هناك سجل يوضح استخدام يسوع بصفة خاصة لكلمة « نعمة »؟ ومع ذلك فان أفعاله تشير إلى انه كان يعرف تماماً معنى الكلمة « نعمة ». تفيض النعمة مجانا من يسوع. نرى ذلك في عرس قانا، وبجانب البئر في السامرة، وفي البيت حيث شفى يسوع الرجل الذي أُنزل من خلال السقف. أظهر يسوع الرحمة لزكا العشار، وللمرأة التي مدت يدها لتلمس ثوبه، وللمرأة التي ضُبطت في زنا.

تكثر النعمة بصفة خاصة عند الصليب. عندما نقرأ الأسفار المقدسة، نلاقي في الجلجثة مجرم يائس يموت صارخاً: « اذكرني يا رب متى جئت في ملكوتك! » (لوقا ٢٣:٤٢). هذا اللص كان يعرف القليل عن يسوع، عدا الشيء الأكثر أهمية. عرف حالته التي كانت بلا رجاء. لاحظ بانه إذا كان يسوع هو ما ادعى البعض بانه هو، فان لذلك أهمية. ذلك يشرح لماذا إلتمس اللص الرحمة. انه طلب النعمة التي يمكن ليسوع وحده أن يعطيها.

أراد أحد الكُتّاب أن يتصور هذه اللحظة بين اللص ويسوع:

> قل لي ما فعله هذا الرجل ليستحق مساعدة. أنه قد أضاع حياته. من هو حتى يتوسل من أجل الغفران؟ فقد استهزأ بيسوع علانية. ما الحق الذي لديه ليصلي هذه الصلاة؟
>
> هل تريد أن تعلم حقاً؟ لديه الحق نفسه الذي لديك لتصلي صلواتك.
>
> أترى! ذاك هو أنت وأنا على الصليب. مجردين وبائسين وبلا رجاء وغريبين. نحن الذين نسأل: "بغض النظر عن ما فعلته، وبغض النظر عن ما تراه، هل هناك أية طريقة لتذكرني متى جئك في ملكوتك؟ اننا لا نفتخر...

انه أكثر مما نستحق. ولكننا يائسين. لذا نتوسل (مقتبس من ماكس لوكادو).

الخلاص بالنعمة هو الذي كان في قلب بولس عندما ما كتب في أفسس ٢:٨-١٠:

لأنكم بالنعمة مخلصون بالإيمان وذلك ليس منكم. هو عطية الله. ليس من أعمال كيلا يفتخر أحد. لأننا نحن عمله مخلوقين في المسيح يسوع لأعمال صالحة قد سبق الله فأعدها لكي نسلك فيها.

هذا النص يؤكد الخلاص بالنعمة. هذا ما يقوله لنا: الله وحده يستحق المجد من أجل النعمة التي تجعل خلاصنا ممكنا. تلك هي الحقيقة الأساسية (أفسس ٢:٨-١٠).

خلاصنا يمجد نعمة الله العظيمة

أقرأ الآية ٨ « لأنكم بالنعمة مخلصون بالإيمان »، ولاحظ الكلمات الأساسية الثلاث. الأولى هي الاسم « نعمة » (اليونانية هي: شاريس). النعمة هي عمل الله الصالح لمن لا يستحق. لا يوجد شيء فينا يستحق الخلاص. من نحن وما نفعل لا يضع الله أبداً في موقف يكون مدان إلينا بعض الشيء بالحياة الأبدية معه. لا عمل صالح ولا طقس ديني، لا ذبيحة ولا تبرع مالي، لا كمية الخدمة المقدمة باسم الرب قد يجعل الله يميل إلى خلاصنا.

الفكرة التي لا تصدق التي قد نفكر بها هي: الله يحبنا، ويطلب خلاصنا بالنعمة، ويرغب أن يمنحنا حياة أبدية معه في السماء، رغم اننا أخطأنا ضده. لا شيء يمكن التفوق على نعمة الله المدهشة!

الكلمة الأساسية الثانية في الآية ٨ هي « مخلصون »، (اليونانية هي: سوزو). هو فعل مبني للمجهول، يضع التوكيد على ما تم عمله لنا. إننا لا نخلص أنفسنا، بل الله هو الذي يخلصنا. يعمل الله نيابة عنا. خلاصنا يشهد لخليقة الله في حياتنا.

الكلمة الأصلية « مخلصون » قد تدل على مفهوم « الإنقاذ والنجاة. » نعمة الله تنقذنا. في مفهوم النص للأصحاح ٢ من الرسالة إلى أفسس، يمكننا أن نرى ما يتضمنه هذا. قبل أن تفيض نعمة الله على حياتنا، كنا أمواتاً – منفصلين تماما عن الله (أفسس ٢:١)، وتحت سيطرة إبليس (أفسس ٢:٢)، ومدانين كخطاة نواجه حكم الله (أفسس ٢:٣).

قد نجتنا نعمة الله. نعمته قد أتت بنا من الموت إلى الحياة. نعمته حررتنا من سيطرة إبليس. نعمته قد أنقذتنا من مواجهة دينونة الله كخطاة محكوم علينا. بالنعمة نحن مخلصون.

الكلمة الأساسية الثالثة في الآية ٨ هي « إيمان » (اليونانية هي: پيستيس). الخلاص الذي يأتي إلينا بالنعمة، يأتي بواسطة الإيمان. لا بد أن يكون لنا إيمان لكي نقبل عطية الله الكريمة للخلاص. يتوقع الله منا أن نؤمن ونعمل حسب كلمات ووعود الله، ولكن إيماننا الفعال لا يجب أن يُرى أبداً كشيء الذي يجعلنا نستحق الخلاص.

في بعض المقررات التعليمية التي أخذتها في الجامعة، عقدتُ إتفاقية مع المحاضر. لكي أحصل على درجة « جيد » كان عليّ أن أفعل هذا، وذاك. ولكي أحصل على درجة « ممتاز »، كان عليّ أن أفعل هذا، وهذا، وذاك. وفي نهاية نصف السنة الدراسية، إن كنت قد عملت للحصول على درجة « الممتاز » وفعلت كل ما كان مطلوب للحصول على درجة « الممتاز »، فأستحق درجة « الممتاز ». لم يعمل لي الأستاذ أي استحسان ولم يظهر رحمة ليعطيني درجة « ممتاز ». إن كنت قد قمت بالواجب فهو ملزم أن يعطيني تلك الدرجة. هكذا كانت الإتفاقية.

عندما يتعلق الأمر بالخلاص، تختلف الحالة. أرجو أن لا تخطيء الظن بان ما نسميه أحياناً بـ « خطوات الخلاص » (اسمع، آمن، توب، اعترف، واعتمد) هي إتفاقية مع الله. لا تظن بانك إذا فعلت هذه الأشياء تستحق الخلاص. كخطاة، نحن نستحق أن نُقطع من الله إلى الأبد. بالنعمة فقط يوفر لنا الله الخلاص.

نظهر الإيمان بالله عندما نطلب كلمته، وعندما نكرس أنفسنا لكلمته، وعندما نتوب

ونرجع عن الأعمال التي لا يساندنا الله فيها. نظهر الإيمان بالله عندما نعترف بان يسوع هو المخلص الذي نحتاج إليه وعندما نعتمد لمغفرة خطايانا. لا يوجد أي من هذه الأفعال يستطيع أن يخلصني أو يخلصك أو يخلص أي شخص آخر. لا يمكن للخطاة أن يستحقوا الخلاص؛ انه يأتي فقط بنعمة الله. خلاصنا يمجد نعمة الله العظيمة.

خلاصنا يكشف عن عطية نعمة الله

اقرأ أفسس ٢: ٨ و ٩ مرة أخرى: «لأنكم بالنعمة مخلصون بالإيمان وذلك ليس منكم، هو عطية الله. ليس من أعمال كيلا يفتخر أحدكم.» تابع بولس تأكيده عن الخلاص بالنعمة بالإيمان بعبارتين يجب أن تؤخذا بعين الأعتبار. كلاهما توضحان كيف ان النعمة عطية. قال أساساً: «لم نحصل على الخلاص بأنفسنا. بل الله هو الذي منحنا. الخلاص ليس عمل جيد قمنا به بأنفسنا. هو بكامله عطية الله.»

وثانياً أعاد بولس التوكيد على ان خلاصنا لا يعتمد على الأعمال. انه ليس ثمن ننالة بسبب إنجاز بارز قمنا به. سوف لا يخلص أحد على الاطلاق بأعمال مصممة لتنال رضا الله. استثنى بولس «كل الامكانية لحصول على خلاص من خلال النفس.»

قص كينت هاجس قصة شرقية قديمة تظهر عبث الخلاص بالأعمال:

> ...كان هناك رجلاً مسافراً على حماره عندما مر بشيء صغير وغريب على الطريق. فنزل من ظهر الحمار لينظر عن كثب فوجد عصفوراً راقداً على ظهره ورجليه مرتفعتين نحو السماء، في باديء الأمر، ظن أن الطير ميتاً، ولكن بالفحص المقرب تأكد انه كان على قيد الحياة. فسأل الرجل العصفور «هل أنت على ما يرام؟» فأجاب العصفور: «نعم.» قال الرجل: «ماذا تفعل وأنت راقد على ظهرك برجليك متجهتان نحو السماء؟» أجاب العصفور بانه قد سمع إشاعة أن السماء ستسقط، لهذا كان يرفع رجليه لإسنادها. أجاب الرجل: «بالتأكيد، أنت لا تظن بانك ستثبتها إلى الأعلى بهاتين الرجلين الهزيلتين، هل تظن ذلك؟» رد العصفور بحجة وبنظرة كئيبة: «يفعل الشخص أفضل ما يمكنه.» كان خداع النفس والعبث ظاهرين عند العصفور الصغير.
>
> هكذا فإن حالة الإنسان يائسة جداً بحيث ان أعماله ليس لها فعالية أكثر من فعل رجلي العصفور في الهواء أو تجميل الجثة. لن يخلص أحد أبداً بالأعمال.

يا صديقي، ان ذاك يوضح كيف انه من السخيف للإنسان المخلص أن يتكابر بالفخر وينظر إلى شخص آخر ويظن: «اني صالح أكثر منه. أنا أفضل منها. أنا والد أو والدة أفضل. لي أخلاق أفضل. اني اتبع المسيح بأكثر استمرارية. أنا مسيحي أفضل.»

ذلك النوع من التكبر الروحي قد يجد طريقه إلى قلوبنا وعقولنا، ولكنه يعبر عن فهم بدائي خاطيء عن نعمة الله. نقف كلنا على قدم المساواة تحت صليب المسيح. رجاءنا لا يعتمد على صلاحنا أو على أحساننا، أو على حسن خلقنا كوالدين أو أطفال أو سلوكنا الاخلاقي. رجاءنا الوحيد هو عطية الله الكريمة – يسوع المسيح. بناء على ذلك لا يوجد سبب لأي منا ليفتخر بانه أفضل روحياً من الآخرين. ليس لأي منا الحق بالإنسحاب عن الذين قد يبدون ضعفاء. علينا أن نساعد الآخرين في ضعفهم ونطلب مساعدة لضعفتنا.

نحن مدعون لنفرح بسبب عطية نعمة الله، لنحب الآخرين إلى حد يجعلهم يأتوا إلى المعرفة عن نعمته، ولنحب الرفاق المسيحيين. لا بد أن نحب الإخوة الذين هم في حالة عدم الكمال التي هم فيها، لأننا كلنا نشارك عطية النعمة نفسها.

خلاصنا يعظم نعمة الله المبدعة

استمر بولس: «لأننا نحن عمله مخلوقين في المسيح يسوع لأعمال صالحة، قد سبق الله فأعدها لكي نسلك فيها» (أفسس ٢: ١٠). لاحظ باننا: «عمل الله». الكلمة اليونانية لـ «عمل» هي «پويما»، وهي تعني «عمل الفنون، نموذج.» في المسيح قد نلت نعمة الله وأصبحت عمله النموذجي.

رسومات مايكل أنجلو وتماثيله تشهد لعبقريته المبدعة. ومسرحيات شكسبير تجعلنا نفكر في عمل المعلم. وموسيقى موزارت تعلن موهبة مؤلف موسيقي لا يضاهي.

كان بولس يقول: « أنظروا حولكم أيها الإخوة، أنظروا إلى الناس في كنيستكم المحلية، وأنظروا إلى الفرق الذي جعله الله في حياتهم؛ كل حياة تشهد لموهبة الله المبدعة. انه قد أخذ حياة الناس المحطمة والمكسورة والمنحرفة والمضللة وجعلها صالحة لصنع حياة جديدة. »

نحن عمل الله. المسيحيون المراهقون هم قصائد الله، يخاطبون بالنعمة والرحمة والمحبة، والنساء في الكنيسة هن الجمال الذي صنعه الله، وصممهن لتزين الحياة اليومية – جوهر الحياة نفسها. الرجال الذين يتبعون المسيح ينحتهم الله ليعكسوا صورة يسوع نفسه. عندما يتعبد المسيحيون معاً، يبلغون عن النصر الساحق لمجد الله الذي يخلصنا. نحن عمل الله. لماذا؟ لاحظ الجزء الأخير من الآية: « مخلوقين في المسيح يسوع لأعمال صالحة. » نحن مخلصون لكي نخدم – كل واحد منا. أنت غير صغير جداً بحيث لا تستطيع أن تعمل أعمال صالحة، وليس هناك عمر للتقاعد عن القيام بالأعمال الصالحة. قال يسوع: « فليضئ نوركم هكذا قدام الناس لكي يروا أعمالكم الحسنة ويمجدوا أباكم الذي في السموات » (متى ٥:١٦).

أعمال الله لم يُقصد بها أن تكون محدودة لخاصية الكنيسة. أعمال الله تختص بالحياة اليومية – بنبرة الصوت والكلمات التي نستخدمها لأخ أو أخت في البيت، جودة العمل الذي تقوم به لصاحب العمل، والصبر الذي تظهره للعامل في البقالة، وتشجيعك لمن يشاركك أحماله.

أعمال الله ذات صلة مع الحياة وكيفية السلوك بها.

الخلاصة

في كتابه بعنوان « إنجيل البسطاء »، سرد برنان مانينك قصة قالها دكتور:

> أقف بجانب سرير حيث ترقد فيه امرأة شابة، وجهها مشوه بعد العملية الجراحية وفمها ملتوية نتيجة الشلل. وعصب وجها الصغير الذي يؤدي إلى عضلات فمها قد تمزق. هكذا ستكون منذ الآن فصاعداً. كان الطبيب الجراح قد تابع بدقة متناهية التواء جسدها؛ اني أؤكد لك ذلك. ومع ذلك، كان عليَّ أن أقطع العصب الصغير من أجل استأصال الورم الذي في خدها.
>
> كان زوجها الشاب في الغرفة، يقف على الجانب المقابل من السرير، وكان يبدو كأنهما في غرفة ذات ضوء خافت ومنعزلة عني. من هما؟ هكذا سألتُ نفسي، هذا الشاب وتلك الفم الملتوية، من هما اللذان يحدقان على بعضهما ويلمسان بعضهما بلطف وشوق؟ تكلمت الشابة.
>
> وسألت: « هل ستبقى فمي هكذا؟ »
>
> فقلت: « نعم، هكذا ستبقى، لأن العصب قد تمزق. »
>
> فأومأت برأساها في سكوت. ولكن الشاب يبتسم ويقول:
>
> « هذه الفم حلوة وجذابة، اني احبها. »
>
> وللوقت عَلِمْتُ من كان هو. فهمتُ الوضع واتجهتُ بنظَري إلى الأسفل. لم يكن أحد جريء عندما يلاقي « إله ». وبدون تردد ينحني ويقبل فمها الملتوية وأنا قريب جداً لا أرى كيف التوى شفتيه لتتكيفا مع شفتيها، ليظهر لها بان القبلة مازالت ممكنة.

أذكر الصليب؛ أذكر الجلجثة. أذكر بان الله كان هناك – الله كإنسان. كان الله يتلوى من الألم ومفتول ومضروب وينزف الدم. كان الله في يسوع مفتول الشفتين ليكون لنا مكاناً، وهو يتعامل معنا على أساس النعمة عوضاً عن أعمالنا الدنيئة ذات المنظر البراق.

أفتح قلبك لحظة لحقيقة نعمة الله. هل إيمانك مستعد لكي تفيض نعمة الله من خلاله إلى حياتك؟ هل أعتمدت، ليس لكسب الخلاص، بل لتعبر عن إيمانك القوي بان يسوع هو

رجاءك الوحيد؟

هل التفكير في نعمة الله يبكتك على الكبرياء؟ ربما قد وضعت نفسك في أعلى القائمة. ربما أصبحت ترى نفسك كمن هو فوق الآخرين في الصلاح والبر. ألا يجعلك التذكير بنعمة الله أن ترى مرة أخرى باننا كلنا أناس في حاجة ملحة إلى الله؟ هل ستسأل الله، كما نفكر عن نعمته ليساعدك كي لا تكون شخص انتقادي جداً ومتكبر؟

هل تشجعك نعمة الله لترى مرة أخرى قيمة وغرض الأعمال الصالحة؟ الأعمال الصالحة لا تجعلنا نكسب شيء. انها تجعلنا نرى الله بطريقة حلوة لنقول «شكراً يا رب على نعمتك وعطاياك.»

جميع الحقوق محفوظة ٢٠٠٧